
المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ - ١٩١٨) (*)

فدوى أحمد محمود نصيرات (**)

باحثة من الأردن.

تكمّن أهمية هذه الدراسة في أنها دراسة تتناول دور المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر في نشأة الفكر القومي العربي، وذلك في ضوء معطيات الصحف والمجلات التي أسسها أو ساهم في تأسيسها المسيحيون العرب، بالإضافة إلى المذكرات والأدبيات والأرشيف الذي احتفظت به الجمعيات على وجه الخصوص، فضلاً على الكتابة المعاصرة التي تبلورت في سياق البحث عن أفق جديد للحياة العربية في تلك الفترة العاصفة بالأحداث أو التحولات الجوهرية العميقة في بنية المجتمع ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وكان الباعث الأساسي لاختيار هذا الموضوع هو الكشف عن الدور التاريخي الذي قام به المسيحيون العرب في التبشير بالأفكار القومية وتفعيلها في سياق الحياة العربية، لا سيما بعد أن كشفت القومية التركية عن وجهها الحقيقي من خلال نزعتها الطورانية المتطرفة.

أولاً: أوضاع المسيحيين العرب في ظل الحكم العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨)

ابتداءً من عام ١٥١٦ غدا المسيحيون العرب جزءاً من رعايا الدولة العثمانية، التي عاملتهم وفقاً لنظام الملة المستنبطة قواعده من أحكام الشريعة الإسلامية؛ إذ تألفت الرعية في الدولة العثمانية من فئتين: المسلمين وغير المسلمين. واعتبرت الفئة الثانية، لا سيما المسيحيون، من أهل الذمة، وهم الذين يتعهدهم السلطان بالحماية، وذلك بالمحافظة على حياتهم وحياتهم وأموالهم، والسماح لهم بممارسة طقوس دياناتهم، وإعفاؤهم من الخدمة العسكرية. وفي المقابل

(*) تمثل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت العنوان نفسه ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٧٧، مع ما يستلزمه التحرير لأغراض النشر في المجلة. وهناك توثيق كامل لكل ما جاء هنا، في الكتاب المشار إليه أعلاه.

(**) البريد الإلكتروني:

nusairf@yahoo.com.

يتعهد الذميون بدفع الجزية، والالتزام ببعض القيود التي تجعل منهم طبقة من المواطنين ولكنهم في درجة أدنى من درجة المسلمين.

والمسيحيون العرب في بلاد الشام ينقسمون إلى العديد من الطوائف الدينية، أبرزها: الروم الأرثوذكس، الكاثوليك، الأرمن، الموارنة، البروتستانت، وأخيراً الأقباط في مصر.

وأطلق العثمانيون على هذه الطوائف اسم «ملة»، وعلى الشخص المسؤول عن إدارتها لقب «ملييت باشي»، وبالتالي كان على كل طائفة أن تخضع لرئيسها، كالبطريك الذي أُعطي سلطات واسعة في إدارة أملاك وأموال الكنائس والأديرة، وهو ما أدى إلى اتساع نطاق إشرافه على شؤون الكنيسة ورعاياها الدينية والمدنية والاجتماعية والثقافية والقضائية.

ونتيجة لهذا النظام، أبعدت هذه الطوائف عن مواقع الهيئة الحاكمة، الأمر الذي جعلها - أي الطوائف - تتجه نحو الاعتماد على التجارة والخدمة المالية للدولة. ولهذا فقط لعب هؤلاء دور الوسيط التجاري بين الصانع الرئيسي - أي الأوروبيين - والمشتري المحلي. ونتيجة لهذا النظام أيضاً حصل المسيحيون على الحماية من قبل الأوروبيين الذين قدموا لهم التعليم عن طريق البعثات التبشيرية وأعدوهم بشكل خاص ليخدموا كوكلاء للتجارة والمصالح الدبلوماسية الأوروبية، فسيطروا على زمام الأمور المالية من خلال المصارف التي تقرض الحرفيين والملاكين

دخل المسيحيون العرب عهداً جديداً في مرحلة حكم محمد علي باشا لمصر وبلاد الشام، فنعموا بالحرية، ومثلوا في المجالس الاستشارية.

والفلاحين المسلمين، وهو ما أعطى المسيحيين ضماناً لتقدمهم الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي. وأدت هذه الأوضاع أيضاً إلى عزلة هذه الطوائف، وتشكيل مجموعات شبه مستقلة تمارس نمطاً من الحياة الخاصة التي كانت تثير نقمة المسلمين أحياناً.

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية وضع المسيحيين العرب الاجتماعي والسياسي قبيل حكم محمد علي لمصر وبلاد الشام. وبين الكثير من الأحداث سوء المعاملة التي كانوا يلقونها من عامة السكان والسلطات على حد سواء. وبحسب شاهد عيان على أحداث العصر، وصل التعصب الديني مداه، وصار المسيحيون عرضة للإهانة والإذلال، فكان المسيحي حينما مر «يُبعت بالكافر، ويُسْتَم صليبه، ويُحتقر، وتُقلب عمامته، ويُصْفَع ويُرفس». وذهب المؤلف أبعد من ذلك عندما أشار إلى قتل المسيحي الذي لم يقد بدفع الجزية أو الخراج، ومنعه من ارتداء اللباس الملون وركوب الخيل، وزيادة الضرائب عليه. وحرّم على المسيحيين حمل السلاح وتقلد السيوف، وفرضت عليهم القيود في مجال بناء الجديد من أديرتهم وبيعهم وكنائسهم... إلخ.

ومما يجدر ذكره هنا أن أكثر حالات الاعتداء التي وقعت على المسيحيين العرب كانت من الجند (والأوباش). وتذكر المصادر أن هناك جماعة من الفقهاء المسلمين لم يرضوا عن هذه المعاملة، لكنهم كانوا قلة، لهذا لم يكن لهم تأثير يذكر لرد الأذى عن المسيحيين.

دخل المسيحيون العرب عهداً جديداً في مرحلة حكم محمد علي باشا لمصر وبلاد الشام،

وهو الحكم الذي تميز بانفتاحه تجاه الغرب، وقيامه ببناء دولة حديثة تركز على بناء جيش قوي وإعادة تنظيم الإدارة والنهوض بالزراعة واستحداث صناعات جديدة وإدخال التعليم العصري. ولقد استعان محمد علي في ذلك كله بالخبراء الأجانب وأبناء البلاد المحليين من مسلمين ومسيحيين. لهذا قام بإلغاء القوانين التمييزية التي كان يخضع لها بعض الرعايا، ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية جهاراً، وإنشاء المدارس والكنائس، واستعان بهم في إدارة الشؤون المالية، وشغل عدد منهم وظائف حكام لعدد من الأقاليم. وفي ما يتعلق بالحياة الاجتماعية، فقد أزيلت الحواجز بين المسيحيين والمسلمين كافة، فلبسوا اللباس الملون، وركبوا الخيل، وحملوا الأسلحة، ومُنحوا الحرية الدينية، ومثلوا في المجالس الاستشارية بنسب متساوية مع المسلمين. وامتدت سياسة التسامح هذه إلى عهد ابنه إبراهيم باشا في بلاد الشام، وانتشر العدل والتسامح في جو كان مشحوناً بالفتن والكره والتعصب، الأمر الذي مهد الطريق لإزالة كل أنواع الاضطهاد التي مارسها الأتراك ضدهم. وقد شكلت إصلاحاتهما في تحرير المسيحيين دوراً كبيراً في الترويج لفكرة القومية العربية، ومهدت السبيل في ما بعد لمن قالوا بفصل الدين عن الدولة. وتتابع تحسن أوضاع المسيحيين العرب من بعد خروج محمد علي باشا من بلاد الشام، وذلك على إثر الفرمانات التي أصدرتها الدولة العثمانية، من مثل خط كولخانة عام ١٨٣٩، وخط همايون عام ١٨٥٦، وخط الإصلاحات والتنظيمات الجديدة عام ١٨٧٤ التي شددت على حسن معاملة المسيحيين والإبقاء على الامتيازات التي منحت لهم وإلا خسروا الدعم السياسي الأوروبي.

ومن المهم الإشارة إلى أن التنظيمات ساهمت في ظهور قلق اجتماعي تطور إلى توتر وسفك دماء وصولاً إلى أحداث ١٨٦٠ الشهيرة، التي كان لها إيجابية تذكر من الناحية الفكرية؛ إذ نبهت الناس إلى ما ينجم عن الجمود العقلي من أضرار وجعلهم يدركون أضرار العداء الطائفية، الأمر الذي جدد السعي إلى إنشاء المدارس، ودفع المفكرين إلى تحرير الوطن من الحكم التركي، ومنهم بطرس البستاني وإبراهيم اليازجي، وهما من الجيل الذي بعث الحياة في تراث العرب الثقافي وبذر بذرة الوطنية الأولى التي تطورت إلى حركة تتمثل أهدافها في القومية لا الطائفية.

ثانياً: الإرساليات التبشيرية

في هذه الفترة، ازداد النشاط التبشيري في بلاد الشام ومصر؛ فقد تعددت الإرساليات التبشيرية، وأبرزها:

١ - **الإرساليات الكاثوليكية:** منها إرساليات اليسوعيين واللعازاريين التي هي من أقدم البعثات التبشيرية إلى بلاد الشام؛ إذ قدمت إلى المنطقة في أوائل القرن السابع عشر، وطورت نظاماً تعليمياً هدفه خدمة احتياجات الموارنة والطوائف الكاثوليكية، وافتتحت العديد من المدارس سواء للذكور أو الإناث في عينطورة وعين ورقة، وأسست جامعة القديس يوسف التي قامت بدورها بتعليم اللغات القديمة والحديثة والأدب والطبيعية. ووسع اليسوعيون مجال عملهم، فامتد إلى دمشق وحلب وفلسطين والأردن ومصر، ودخلوا ميدان الطباعة، وبنوا المستشفيات والمؤسسات الخيرية.

٢ - الإرساليات البروتستانتية: يعود تاريخ بدء نشاط الإرساليات البروتستانتية إلى العام ١٨٢٠ في القدس، ومن ثم تركّز ذلك النشاط في بيروت وما حولها، حيث قامت بتأسيس العديد من المدارس للذكور والإناث على حد سواء. ومن أكثر الإنجازات أهمية للبعثات الأمريكية تأسيس الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام ١٨٦٦، وهي الكلية التي درّست العلوم الطبية والطبيعية والدينية والعقلية والأدبية والفلسفية. وكان التدريس باللغة العربية من أهم ميزاتهما. وكرست مطبعة الإرسالية في بيروت لطباعة الكتب الدينية والتعليمية باللغة العربية، وجرى تأسيس جامعات في مصر وتركيا كان لها دور أساسي في تطور ونمو الأفكار والحركات السياسية المحلية.

أما الإرساليات البروتستانتية البريطانية، فقد انتشر نشاطها في القدس وسورية والأردن ومصر؛ إذ تأسست جمعية C.M.S. وامتد نشاطها إلى القدس والناصرية والسلط ويافا ورام الله وغزة وعكا والرملة والكرك.

٣ - الإرساليات الروسية: أتاحت اتفاقية كوجك قينارجه، التي وقّعت بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨٨٤، الفرصة لبدء النشاط التبشيري الأرثوذكسي في القدس، وقامت بتأسيس جمعية فلسطين الإمبراطورية عام ١٨٣٧ بقصد دعم النشاط الديني والثقافي الروسي في القدس، وتبنت برنامجاً لتعليم الأرثوذكس في مدن الناصرة ورام الله وحيفا ويافا، وعلمت باللغة العربية.

ونلخص أهم الآثار التي تركتها هذه البعثات في المسيحيين العرب بأنها ساعدت على تعلم اللغات الأوروبية الحديثة، وركزت على التعليم المهني من هندسة وطب وغيرهما من العلوم الحديثة، ولعبت دوراً مهماً في تخريج جيل أو طبقة من المدنيين المثقفين الذين تشربوا الحضارة الغربية وأضحوا من مروجي فكرة الإصلاح في الشرق، الأمر الذي كان منطلقاً لتكوين اتجاه فكري سياسي سينمو عبر الجمعيات والمجلات والصحف؛ اتجاه تميز بطروحاته القومية ودعوته الليبرالية والعلمانية.

ثالثاً: النهضة الفكرية

اتخذت حالة يقظة الوعي القومي عند المسيحيين العرب طابعاً طويلاً متواصلاً. ويمكن أن نبتين ملامح هذه اليقظة منذ القرن التاسع عشر وعلى جميع المستويات: الثقافية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية.

ولقد برزت ملامح التحول لدى المفكرين المسيحيين العرب من خلال وسائل متعددة تمثلت في:

١ - الجمعيات الثقافية

رافق النهضة التعليمية في بلاد الشام إنشاء الجمعيات والنوادي الأدبية التي كان لها دور ثقافي وسياسي واجتماعي مهم؛ فقد أقيمت فيها المحاضرات المختلفة، وتدرّب المثقفون فيها على الحياة والنظم البرلمانية ونشروا دعوات وأفكاراً جريئة عن أنظمة الحكم، متأثرين بالأراء والفلسفات الغربية، وأبرز هذه الجمعيات:

أ - **مجمع التهذيب (١٨٤٦):** وكان يهدف إلى تهذيب العقل واكتساب المعرفة ونشرها، مع عدم التعرض إلى المسائل الدينية والسياسية. وهو أول جمعية ثقافية عربية لم تقتصر على موضوعات لغوية وأدبية بل تجاوزتها إلى مناقشة موضوعات، مثل الوطنية وإحياء أمجاد الماضي.

ب - **الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون (١٨٤٧ - ١٨٥٢):** قامت على فكرة رفع مستوى المعرفة ببذل جهد جماعي منظم. وحدد دستور الجمعية مجموعة الأهداف التي يتوخى تحقيقها في مجال العلوم والفنون، وأهمها العمل على إنهاء الرغبة في اكتساب العلوم. أما الفوائد المجردة عن المسائل الخلافية في الأديان والأحكام، فهذه أمور لا تتعلق بنشاط الجمعية.

ج - **الجمعية الشرقية (١٨٥٠):** أنشئت في بيروت وبمساعدة الآباء اليسوعيين، وهي علمية أدبية، وهدفها الأساسي العمل على نشر العلوم والمعرفة، وجرت مباحثاتها باللغة العربية.

د - **الجمعية العلمية السورية (١٨٥٧ - ١٨٦٨):** أنشئت في بيروت، واشترك فيها زعماء العرب من جميع الأديان، وكانت غايتها إثارة الوعي الوطني في النفوس للعمل على بعث التراث العربي والاعتزاز به، ونشر العلوم في البلاد دون التعرض إلى المسائل السياسية أو الدينية.

٢ - الصحافة

ساهمت الصحافة الدورية العربية بدور ملحوظ في تطور الوعي القومي العربي. ومن المسلم به أن الصحافة العربية قامت على أكتاف المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر، وكان لها دور مكمل لما بدأتها الجمعيات الثقافية من نشاطات، لكن بشكل أوسع وأشمل، بالإضافة إلى سعة انتشارها، الأمر الذي حقق أكبر الأثر في نشر الوعي القومي. ومن أبرز الموضوعات التي ركزت عليها الصحافة العربية في تلك الفترة:

أ - اللغة العربية وضرورة التمسك بها وإعادة إحيائها من جديد بحيث تصبح لغة عصرية تواكب العلم الحديث، وذلك من بيان مميزات اللغة العربية وخصائصها التي انفردت بها عن اللغات الأخرى؛ وتقديم الشروحات والأدلة على أهمية اللغة في حياة الأمم والشعوب لأنها تعد من عوامل الوحدة بين الأفراد، ودونها تنقطع العلاقات وتتقوض أركان الهيئة الاجتماعية؛ وإصرار الكتّاب المسيحيين على ضرورة تعليم العلوم المختلفة باللغة العربية، ومحاربة «المتفرنجين» الذين يعمدون إلى الخلط بين اللغة العربية واللغات الأجنبية الأخرى. حتى إن هؤلاء الكتّاب وضعوا شروطاً لمن أراد القيام بعملية التعريب، أبرزها أن يكون عارفاً باللغة التي يعرب عنها، واللغة التي يريد أن يعرب إليها، متقناً لأصولها وقواعدها حتى لا يكون هناك أثر لـ «العجمة»، وأخيراً الحث على الاشتغال بعلوم اللغة العربية والتعمق في معرفة مفرداتها، وأن يتم تصوير المعاني الخليفة بها، واستنباط الأوضاع الملائمة لها.

ب - الفخر بالجنس العربي والتغني بأمجاده السابقة وأخلاقه المميزة؛ إذ بحث

المسيحيون العرب في أصل الجنس العربي وصفاته الأخلاقية من مثل الكرم والشجاعة، وتغنوا بمجد العرب ومكانتهم بين الشعوب الأخرى، والخدمات التي قدموها إلى الحضارات الأخرى.

ج - الدعوة إلى الألفة والتضامن: توقف الكتاب المسيحيون عبر صحفهم المختلفة عند ضرورة الاتحاد والألفة بين أفراد المجتمع، وذلك بهدف بناء مجتمع متماسك يكون نموذجاً لصيغة التقدم المنشود لدى الأمة العربية تحديداً على اختلاف طوائفها ومللها؛ فالألفة هي المحور الذي يدور عليه خير الوطن، واليد الجامعة لأفراد الأمة، وأساس التمدن، ودونها لا تقوم للوطن قائمة.

د - رفع شعار حب الوطن من الإيمان: تبلور هذا الشعار في سياق الحملة التي شنّها الكتاب العرب المسيحيون على البعد الديني للوطن، فكان لا بد من إحلال بدائل روحية مكان الرابطة الدينية، من مثل الحس الوطني، والمواطنة الصالحة، وحرية الأديان. ومن هنا نشأت لدى الكتاب المسيحيين العرب رغبة عميقة في تقديم رابطة الوطن على رابطة الدين في جميع مسارات الحياة.

ساهمت الصحافة الدورية العربية بدور ملحوظ في تطور الوعي القومي العربي، وقد قامت على أكتاف المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر.

هـ - المرأة العربية ودورها في تنبيه الوعي القومي: شدد الكتاب المسيحيون العرب على ضرورة تعليم المرأة؛ إذ إن صلاح الأمة يبدأ بإصلاح المرأة؛ فهي المدرسة التي يجب إعادة تأهيلها ثقافياً ومعرفياً، الأمر الذي نحتاج إليه من أجل تقدم الأمة.

و - الدعوة المستمرة إلى الأخذ بأسباب تقدم الأمم المتقدمة، من مثل النقد القائم على أسس ومبادئ صحيحة هدفها الصالح العام، ونشر ثقافة التقدم، والتطلع إلى الأمام من خلال الصحف والدوريات والتيقظ وحسن الإدارة، والابتعاد عن التشيع المذهبي والتعصب الديني، والتركيز على دور مفكري الأمة وقادتها الذين بمقدورهم تقويم المبادئ ووحدة الأفكار، والاقتباس من الغرب، وتعلم اللغات، وتدقيق البحث، والتحلي بالمروءة والعزم، والثبات واحترام الآخر، ولكنهم طالبوا بالألا نبالغ في الاقتداء بالغرب، وبأن نفهمه تماماً بكل عناصره الإيجابية والسلبية.

ز - الأخذ بالتربية القومية التي تقوم على إعداد الأمة للحياة القومية، وتوحيد الأمة ومساعدتها على تأدية رسالتها إلى الإنسانية، فالتكافل والتكامل بين القوى الاجتماعية، سواء كانت إسلامية أو مسيحية، ضروريان، وارتقاء المسيحيين منوط بالمسلمين، والعكس صحيح، ولكون الرسالة هذه تحقق السعادة والرفق للمجتمع، وهذا لا يتأتى إلا بالتربية الصالحة.

٣ - المؤلفات

تطور التأليف في اللغة والأدب والنقد والبلاغة. ويلاحظ أن العناية باللغة كانت في جوانبها صدى لظاهرة أعم هي تنبيه الوعي العربي والاتجاه إلى إبراز مقومات الأمة العربية،

وإثبات شخصيتها أمام التحديات. ومن هنا ساهم الكثير من الأدباء واللغويين في إحياء اللغة العربية وآدابها، وتم رصد الكثير من المؤلفات التي عبّرت بأفكارها ومضامينها عن بدايات الوعي القومي لدى الكتّاب المسيحيين العرب، من مثل الدعوة إلى التمثيل بالغرب في بناء الدولة الحديثة، وخاصة الأنظمة الدستورية الداعية إلى إقامة العدل والحرية والمساواة، والثورة على الواقع الاجتماعي والتعليمي الذي يعيشه العرب، والتركيز على فكرة الرابطة القومية بمعناها الحديث على أساس اللغة والجنس والثقافة والتاريخ والآمال والطموحات المشتركة تمييزاً لها من الرابطة الإسلامية أو العثمانية. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الكتابات جاءت على أشكال مختلفة: قصص وروايات ومسرحيات وكتابات اجتماعية وإصلاحية، وعلى فترات زمنية مختلفة خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. ومن هذه الكتابات:

أ - مسرحية عنتره

وضعها شكري غانم عام ١٨٩٨ واستلهم مادتها من التراث العربي، متوخياً من خلالها بث الدعاية للقضية العربية ووحدة البلاد العربية، وذلك بمحاولة توجيه أحداث المسرحية نحو فكرة توحيد القبائل العربية وجمعها تحت سقف واحد وسيد واحد، وحث العرب على نبذ خصوماتهم للوقوف في وجه أعدائهم صفاً واحداً.

ب - غابة الحق (١٨٦٥)

دعا مؤلف الكتاب فرنسيس المرّاش إلى محبة وطنية منزهة عن أغراض الدين، حيث يذهب إلى أن الأحقاد الطائفية والدينية من أخطر نتائج الجهل والتوحش. وطالب بمحاربة الحاكم المستبد والثورة عليه، وأكد ضرورة محاربة دولة «الخشونة والبربرية» التي تقيد حرية الإنسان، وأخيراً دعا من خلال الكتاب الجميع إلى ضرورة محبة الوطن والعمل من أجل مصلحته والدفاع عنه، لأن ذلك واجب على كل من يتمتع بخيراته.

ج - رحلة باريس (١٨٦٧)

أكد فيه فرنسيس المرّاش أيضاً ضرورة التقدم واللاحاق بركب الحضارة الغربية. ولهذا قدم وصفاً دقيقاً لمدينة باريس، وكيف أن الجميع هناك يتسابقون من أجل التقدم والمنافسة في جو من الوفاق والمحبة وهم يد واحدة، ومنضمون إلى قوة واحدة، ومتنبهون إلى أن التهاون يقود إلى التأخر والبطالة، فهم يمتلكون الحرية الكاملة في تصرفاتهم، ويعيشون دون خوف من أي سلطة أو حاكم.

د - العلم والتربية

أشار خليل زينية من خلاله إلى أهمية الوطن، فهو كل ما «يملك الإنسان ويميل إليه ويكلف به وهو موضع مجد وعز وافتخار المواطن». أما الوطنية، فهي عاطفة سامية تعلم المرء أن نفسه ليس له بل هي للأرض التي ولد فيها وينتمي إليها. وركز المؤلف على أهمية اللغة في

تنمية الإحساس القومي، وأكد أن كل أمة لا تحب لغتها ليست خليفة بأن ترفع إلى مقام الأمم الحية والشعوب المتمدنة.

هـ - الكتابات السياسية والاجتماعية، وكتاب «الدر» (أديب إسحق)

دعا فيهما أديب إسحق إلى إعادة إحياء التراث العربي والمجد العربي، والابتعاد عن التعصب الديني الذي هو سبب أساسي في تأخرنا، وإلى ضرورة الإصلاح الذي لا يأتي إلا بالقوة، والقوة لا تحصل إلا بالاتحاد ولا اتحاد إلا بالمساواة ولا مساواة إلا بالعدل ولا عدل إلا بالعلم ولا علم إلا بالحرية». وحرص إسحق في كتاباته الناس على الثورة وعدم السكوت عن الظلم، وركز على علوم اللغة العربية داعياً إلى الاعتزاز بها.

و - غرائب المكتوبجي

دافع من خلاله سليم سركريس عن العرب، ودعا إلى الوقوف في وجه السلطان العثماني، وطالب بالتقدم عن طريق منح الحرية، حرية القول والفعل، وهو بهذا ضد سياسة الدولة العثمانية في البلاد العربية.

ز - مؤلفات شبلي الشميل

تأثر الكاتب الاجتماعي شبلي الشميل بأفكار الثورة الفرنسية، وتبلورت أفكاره الداعية إلى الإصلاح في كتبه فلسفة النشوء والارتقاء، حوادث وخواطر، الكتابات السياسية والإصلاحية، وغيرها. ويمكن القول إن الشميل قد ساهم بأفكاره في إثارة العقلية العربية ومحاولة دفعها للسير في طريق التقدم، من مثل الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، والثورة على القيود الاجتماعية، والتحرر من القيود التي نشأ عليها الفرد في البيت والمدرسة، والمناداة بضرورة الاهتمام بتعليم العلوم الطبيعية، والدعوة إلى الأخوة والتسامح الداعيين إلى التعاون الحقيقي على العمران المبني على معرفة الحق والواجب لدى جميع الأفراد، ونبذ الأوهام والخرافات. أما المرأة، فقد كان الشميل مع إعطائها حريتها، وخاصة في التعليم، لأنها هي المسؤول الأول عن فساد الأسرة وبالتالي الأمة.

ح - يقظة الأمة العربية

تضمن هذا المؤلف لمؤلفه نجيب عازوري أول دعوة صريحة من قبل مسيحي عربي إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وتشكيل دولة عربية برئاسة حاكم عربي.

ط - منتخبات

يحاول الكاتب نجيب حداد في هذا المؤلف أن يزرع الأمل القوي في نفوس العرب من أجل إعادة بناء الوطن من خلال الوحدة والعلم وتمدن الأخلاق والبعد عن التعصب الديني والجنسي، والأخذ بأسباب تقدم الأمم حتى تكون أمة يحق أن يقال لها الأمة العربية.

رابعاً: التيار العربي

يمكن تلخيص أبرز الموضوعات القومية التي تطرق إليها المسيحيون العرب في كتابات عصر النهضة، وعبرت عن الاتجاه العربي، بالموضوعات التالية:

- اللغة العربية والتركيز عليها كوحدة جامعة بين العرب

تنبه المسيحيون العرب إلى أهمية هذا العنصر وفاعليته في بناء الإحساس القومي وتنميته؛ فالعربي هو كل من ينتمي إلى التراث الثقافي العربي ويعتبر اللغة العربية لغته الأم.

- إحياء التراث العربي والتغني بأمجاد العرب

التفت العرب المسيحيون في نهضتهم الأدبية والفكرية الحديثة إلى الماضي البعيد يستلهمون منه القيم والمعاني وطرق التعبير. وفي هذا السياق تبرز أماننا شخصيات أدبية مثل أحمد فارس الشدياق وناصيف اليازجي وإبراهيم اليازجي، الذين اشتهروا بمؤلفاتهم الأدبية واللغوية التي تعبر عن عمق الإحساس بالعروبة والثقافة العربية، إذ استثاروا الحمية العربية للدفاع عن اللغة والتراث، وذلك عبر تذكير العرب بماضيهم التليد والتمسك بلغتهم لأنه لا بقاء للأمة إلا بلغتها.

- المطالبة بخلافة عربية

طالب المسيحيون العرب الأتراك بالخلافة رسمياً لإيمانهم بأن العرب وارثو العقيدة وحماة الشريعة الإسلامية، وهم الأولى بمنصب الخلافة، فهي متصلة جوهرياً بما قام به العرب في سبيل الإسلام، ولا يمكنهم أن يتصوروا كيف يكون خليفة النبي العربي الهاشمي سلطاناً من التتر، لا سيما في أواخر دولتهم، حيث ازداد الانحراف عن تعاليم الإسلام. وكان أبرز من نادى بهذه الأفكار أحمد فارس الشدياق ولويس الصابونجي ونجيب عازوري.

- جدلية التلازم بين الإسلام والعروبة

اعتبر القوميون العرب الإسلام وليد التراث العربي، فلم يرغبوا في الانفصال عنه. ولقد اعتز معظمهم - بما فيهم المسيحيون - بالإسلام لأنه أكد بصورة خاصة عظمة اللغة العربية، وحفظ الطابع العربي للأمة من خلال القرآن الكريم. ولهذا اعتُبر الإسلام من مقومات القومية العربية؛ فالإسلام خرج من شبه الجزيرة العربية، والقرآن الكريم نزل بالعربية، مما دفع المسلمين من غير العرب إلى تبني اللغة العربية والمساهمة في الثقافة العربية - الإسلامية، فضلاً على الثقافة الإنسانية.

- الدعوة إلى التمرد على الدولة العثمانية

وأشهر الدعوات إلى التمرد جاءت عبر بائية اليازجي، التي بعثت الشعور القومي العربي، وكانت عامل تحريض للثورة على الدولة العثمانية، حيث يقول:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

وهناك قصيدة جبرائيل الدلال «العرش والهيكل» وتدور حول ثلاث نقاط: مقاومة سلطان الكهنوت؛ مقاومة استبداد الملوك؛ الدعوة إلى الحكم الجمهوري.

١ - التيار العروبي العلماني

الأسس التي ارتكز إليها التيار العلماني العروبي:

أ - فصل الدين عن الدولة

أكد الكتاب العرب المسيحيون ضرورة فصل الدين عن الدولة، وذلك بسبب الأضرار الناجمة عن المزج بين السلطتين وتعرض كل منهما لمصالح الأخرى، وبسبب تحكم السلطة الدينية بالسلطة المدنية، واستحالة الوحدة الدينية نتيجة التنوع والاختلاف بين البشر وهما السبب المباشر للكثير من الفتن والاضطرابات في الإسلام والمسيحية. وطالب هؤلاء بتنظيم القوانين والقواعد التي تلتئم بها دولة الإسلام مع سائر الدول بالنظر إلى هذه الأمور الدنيوية والمصالح السياسية لا بالنظر إلى المعتقد والآراء الدينية، وذلك ليتمكن العرب من الاتحاد ومجاعة التمدن الأوروبي، ولإطلاق الفكر الإنساني من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية وللمساواة بين أبناء الأمة، بقطع النظر عن المذهب أو المعتقد حتى يكونوا أمة واحدة يشعر كل بالآخر؛ «فلا مدنية ولا تساهل ولا عدل ولا أمن ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل إلا بفصل السلطة الدينية عن المدنية».

ب - الدعوة إلى حكم ديمقراطي حر

دعا الكتاب المسيحيون إلى ضرورة تبني نظام الحكم الذي يقوم على أسس ديمقراطية، من عدل وحرية ومساواة، أي على غرار الدول الأوروبية التي كانت قد استقرت تجاربها الديمقراطية بعد صراعها العنيف مع رجال الدين، وذلك انطلاقاً من إيمانهم - أي العرب - بمشاركة الشعب في الحكم ووضع التشريعات التي يجب أن تطبق على الجميع وتؤهلهم لمعرفة حقوقهم وواجباتهم تجاه الدولة، وإدانة السلطة السياسية المطلقة، وضرورة تقييد سلطة الملك بالدستور وسيادة القانون، والاهتمام بالصالح العام، والحكم المقيد بشرائع من وضع الأمة، وانتخاب الملك من قبل الأمة. ونادى الكتاب أيضاً بضرورة التربية العقلية الخاصة بالنظام السياسي.

ج - التمدن

توجه الأوائل من رواد النهضة العربية إلى مراقبة معالم التمدن الغربي، وتحديد ما يمكن الأخذ به من ثقافة الغرب ونظمه السياسية والاجتماعية. ومن هذه الزاوية انتقد رواد النهضة مظاهر التخلف في الوطن العربي، ثم انطلقوا في مرحلة لاحقة إلى صوغ تصورات للتمدن المنشود. فالتمدن لديهم يدل على التهذيب الداخلي والخارجي والتزین بالمعرفة والأدب والفضيلة، وهو صفة مشتركة بين الرجال والنساء، والغاية منه أنه «يزيد عز البلاد وخيرها».

والتمدن يقوم على أسس ومرتكزات منها:

الديانة السماوية، الحكم الديمقراطي، التعليم، الألفة المدنية وحب الوطن، العدل والتسوية، البعد عن التعصب الديني، الاهتمام بالوقت للعمل والإنتاج والابتعاد عن المذات والاعتقاد بالخرافات، تثقيف العقل وتحسين العادات والتقاليد والأخلاق العامة، النظافة، سلوك المنهج العلمي في التفكير، احترام القانون والنظام، معرفة الإنسان ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

د - الحرية

دعا الكتاب المسيحيون إلى ضرورة تبني نظام الحكم الذي يقوم على أسس ديمقراطية وإنصاف الطبقات الاجتماعية الفقيرة والعطف على حالتهم.

هي أن «يتمتع الإنسان بكل ما فيه نفع له دون الإضرار بغيره»، وتشمل حرية الأفراد، والحرية الأدبية، والحرية السياسية، فعبء الحرية يمكن للفرد أن يحقق الإبداع على المستوى الشخصي ومن ثم الوطني.

٢ - التيار العروبي الاشتراكي

دعا المفكرون المسيحيون العرب إلى إنصاف الطبقات الاجتماعية الفقيرة، والعطف على حالتهم. وكثيراً ما كانت هذه الدعوات مصحوبة بتحذيرات من مخاطر الثورة الاجتماعية، وتسويغ هذه الثورة كوسيلة أخيرة لإقامة العدالة الاجتماعية بالقضاء على التفاوت الصارخ في توزيع الثروات على أساس مكافأة العامل على عمله مكافأة منصفة، ومن خلال التنوير والأعمال الخيرية والتعاون في سبيل الخير العام.

فالاشتراكية هي المذهب الاقتصادي الاجتماعي الذي يمنح السعادة للمواطن، ويضمن حاجاته، ويصون حقوقه بعد أن يفرض عليه واجباته، ويرفعه إلى مقام إنسان، ويعلمه أنه عضو نافع في المجتمع، وأن تبادل المنفعة ينبغي أن يكون على قدر العمل، والهدف من الاشتراكية هو العدل في تقسيم المنفعة بين العمال، وإصلاح مركز الإنسان في العمران.

فمن واجب الحكومة «رفع ظلم القوي عن الضعيف، ومد الضعيف بالقوة ليعيش بأمن وسلام»، وذلك عن طريق مؤسسات الدولة التي يمكنها أن تخلق المساواة بالتعليم والتدريب والمساعدة وتجديد وعيه بذاته وإطلاق طاقاته الكامنة. هنا تتحقق العدالة الاجتماعية من خلال الاشتراكية التي ستسلمه معاملته ومصانعه ومتاجره ومزارعه، وتشغله فيها تحت إدارتها، وتوزع أرباحها عليه، وفي كبره تعين له راتباً يكفيه حتى لا يموت جوعاً.

فالأمة المتعلمة هي التي تحدد معالم الاشتراكية الصالحة للتغيير السلمي. وإذا كانت الأمة هي قاعدة الاشتراكية والخير العمومي هو هدفها، فإن المناقب القومية هي سبيل تحقيق الاشتراكية الناجحة؛ فالأمة هي المالك الشرعي والوحيد لمصادر الثروة ووسائل الانتاج ورأس المال انطلاقاً من موقف أخلاقي يرفض العنف ويدعو إلى المحبة والمساواة والإخاء والحرية.

خامساً: الجمعيات العربية في الفترة ١٨٧٥ - ١٩٠٧

قادت ظاهرة انتشار المجالس الأدبية والجمعيات الثقافية في بلاد الشام ومصر إلى ظهور العديد من التنظيمات السياسية المحلية ذات الطابع القومي بأهداف وغايات مختلفة مثل تشجيع الأدب والخطابة، وتهذيب الناشئة وترويج الأخلاق الكريمة، وإحياء التراث العربي. وإن الدراسة المدققة لأعمال هذه الجمعيات تظهر أن جلها كان يخفي وراء أهدافه تلك أهدافاً قومية عربية غير معلنة، ويعتمد نشر الثقافة العربية والتمسك باللغة العربية والتربية الوطنية وسائل للوصول إلى تلك الأهداف. ولا بد من الإشارة إلى أنه قد تشكلت على يد العرب المسيحيين أولى الجمعيات السرية العربية التي نددت بالحكم التركي، وطالبت بالاستقلال عن الدولة العثمانية وأهمها:

١ - جمعية بيروت السرية (١٨٧٥)

تأسست على يد بعض الطلاب في الكلية الأمريكية السورية البروتستانتية، وضمت إليها شخصيات من مختلف الأديان والطوائف. وقد انحصرت نشاطاتها في الاجتماعات السرية من أجل تبادل الآراء، ووضع الخطط اللازمة لعمل الطلاب ونشر أفكارهم، ولصق المنشورات المنددة بالحكم التركي، وحض العرب على الثورة والمطالبة بالاستقلال.

٢ - جمعية الحزب الوطني (١٨٧٨)

أنشأها فريق من علماء مصر طالب بمنع تغلغل النفوذ الأوروبي، وبالنضال من أجل حياة دستورية، وإشراك نواب الأمة في الحكم، وإجراء الإصلاحات الضرورية.

٣ - جمعية حفظ حقوق الملة العربية (١٨٨١)

نشأت في بيروت على يد متحمسين من المسيحيين والمسلمين، وقامت دعوتها على أساس الدفاع عن حقوق العرب مهما اختلفت مذاهبهم، وحفظ حقوق الأمة العربية، والمساواة بين العرب والأتراك، وإجراء الإصلاحات اللازمة في البلاد العربية، واستقلال كل ولاية من الولايات العربية بماليتها، وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي أو معاون عربي.

٤ - الجمعية الوطنية العربية (١٨٩٥)

تأسست على يد خليل غانم في باريس، وأخذت بتنظيم دعوة ثورية ضد الحكم التركي، وتوزيع المنشورات لهذا الغرض.

٥ - جمعية الشورى العثمانية (١٨٩٧)

أسست في القاهرة بهدف مكافحة استبداد السلطان عبد الحميد. وتمثل هدفها في العمل من أجل وحدة جميع القوميات في الدولة العثمانية لتحقيق أمر واحد وهو نظام قانوني، أي دستوري بحكم عبد الحميد.

٦ - جمعية جامعة الوطن العربي (١٩٠٤)

نشأت على يد نجيب عازوري، والهدف الذي أعلنته هو تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة التركية. وقد نشرت حوالى خمسين نداء عنيفاً تدعو فيها العرب إلى الثورة على الأتراك.

٧ - جمعية النهضة العربية (١٩٠٦)

تأسست في إسطنبول ثم انتقلت إلى دمشق، وتعد هذه الجمعية الوطنية السرية أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في سياق الوعي بالفكر القومي، وتمثلت أهدافها في السعي وراء سعادة الأمة العربية، وإحياء المجد العربي، وتوحيد أبناء الأمة العربية، وإحياء اللغة العربية، والمطالبة بنظام حكم لامركزي يضمن للعرب حقوقهم داخل السلطنة.

٨ - جمعية النشأة التهذيبية (١٩٠٧)

نشأت في حلب، وهدفها التحريض من أجل إنشاء الجمعيات لبث روح الرقي العلمي والأدبي في الناشئة الحلبية.

سادساً: الجمعيات العلنية والسرية في العهد الدستوري (١٩٠٨ - ١٩١٨)

١ - جمعية الإخاء العربي العثماني (١٩٠٨)

هي أول جمعية عربية علنية تأسست بعد إعلان الدستور. كانت مفتوحة لأبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم، وتمثلت أهدافها في التعاون مع جمعية الاتحاد والترقي للحفاظ على أحكام الدستور وجمع كلمة جميع الملل دونما نظر إلى الفروق الدينية والجنسية، والسعي إلى بث العدل والحرية والمساواة بين جميع العناصر.

أما أهدافها القومية، فتمثلت في النهوض بالعرب والمحافظة على حقوقهم، والاهتمام بنشر العلوم والمعارف وتأسيس المدارس، ورفع المستوى الاقتصادي بين السكان، ومساعدة أبناء العرب على التعاون مع العثمانيين لتأسيس الشركات التجارية والصناعية والزراعية.

٢ - العصبة العثمانية (١٩٠٨)

تأسست في باريس، وانطلقت من مبدأ دعم ونشر الهدف السامي للعناصر الحرة في تركيا. ولكن النداء الذي وجهته لم يخف نزعة إقليمية سورية تسترت بالدعوة إلى الارتباط بالعثمانية طموحاً نخبواً للعب دور قيادي في الدولة والمجتمع المحليين في إطار سورية، ودون تحديد جغرافي معين لهذا التعبير.

٣ - الجمعية المركزية السورية (١٩٠٨)

دعت إلى استقلال سورية استقلالاً إدارياً، دولة بعلم واحد، وكل يدير شؤونه الداخلية

بنفسه ويطور ثقافته بطريقته الخاصة. وكان من أهداف الجمعية توطيد المصالح السورية والأمة العربية.

٤ - المنتدى العربي (١٩٠٩)

تمثلت أهدافه في جمع الشباب العرب في الآستانة، وانتزاع حقوق العرب من الأتراك، وبث المبادئ السامية بين الشباب العربي في الآستانة وخارجها، ونشر الدعوة إلى القضية القومية. أقبل الشباب العربي بقوة للانضمام إلى المنتدى، واستقر رأيهم على القيام بدعاية واسعة النطاق تبث في جميع الأقطار العربية تقوم على الأسس التالية: الأمة العربية أمة واحدة فقدت مجدها واستقلالها لتسلط الأجانب عليها، والبلاد العربية بلاد غنية يطمع فيها الأقوياء ويعملون على استعمارها، ولا سبيل إلى تعديل هذه الحالة إلا بتقوية العنصر العربي في الدولة العثمانية وجعله قادراً على الدفاع عن حياته.

وقد هدف المنتدى من نشاطاته كلها إلى إيقاظ الحس القومي لدى الأمة العربية التي كانت تغط في سبات عميق من جراء الاستعباد التركي.

٥ - الجمعية القحطانية (١٩٠٩)

تأسست في إسطنبول؛ إذ ألفها عسكريون في الجيش العثماني. وقد تمثلت أهدافها في إيقاظ العرب من سباتهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد وبكيانهم القومي الحاضر، والعمل على رفع مستواهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وحثهم على التضامن، والمطالبة بما لهم من حقوق مضاعفة في الدولة العثمانية.

٦ - جمعية النهضة اللبنانية (١٩٠٩)

تأسست في بيروت وتلخصت أهدافها في تمهيد السبيل لفرنسا للاستيلاء على سورية ووضعها تحت الحماية. وتمثلت أهميتها في أنها شكلت جزءاً مكوناً من حركة التحرر ضد السيطرة التركية. وكان الوطنيون العرب يتعاونون مع هذه الجمعية، وفي وقت لاحق تركت نظرات قادة الجمعية بصمة جهورية على قرار لجان الإصلاح في بيروت ودمشق وحزب اللامركزية ونتائج عمل المؤتمر العربي الأول في باريس.

٧ - الجمعية العربية الفتاة (١٩٠٩)

تأسست في باريس، ووسعت نطاق عملها في العواصم العربية. تمثل هدفها الأسمى في بلوغ الأمة العربية المكانة التي تستحقها بين الأمم. وكان مبدأ الجمعية القومي الذي يقسم العضو اليمين عليه «بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة المستقلة الكبرى». وكان هدف الجمعية السياسي نيل الاستقلال العربي داخل إطار الإمبراطورية العثمانية، ولكنها تحولت في ما بعد إلى تبني الخيار الثوري من أجل الانفصال عن تركيا، خاصة بعد علمها بقرار الاتحاديين تشتيت شمل العرب.

٨ - جمعية العلم الأخضر (١٩١٢)

أنشئت في الآستانة لتقوية الروابط الوطنية بين الطلاب العرب في المدارس العليا، وتوجيه قواهم لانتشال أمتهم من الحال التي هي فيها.

٩ - حزب اللامركزية الإدارية العثماني (١٩١٢)

تأسس في القاهرة بهدف الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية من الأخطار الخارجية المحدقة بها ومن المنازعات الداخلية، وخلق الشعور بالولاء لوحدة الإمبراطورية العثمانية، والإخلاص للرمز الموحد وهو العرش العثماني، وبيان حسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية. وكان نشاط أعضاء الحزب قومياً عربياً يرمي إلى يقظة الأمة العربية، وتمكين العرب من حقوقهم في الدولة باتباع النظام اللامركزي فيها، الأمر الذي يؤدي إلى شد أزر الدولة العثمانية وقوتها.

١٠ - الجمعية الإصلاحية البيروتية (١٩١٢)

تأسست في بيروت، وقدمت برنامجاً للإصلاح يتلخص في ما يلي: الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في دوائر الولاية الحكومية؛ أن تعين العاصمة رؤساء الدوائر العارفين باللغة العربية وأن تكون بقية موظفي الدوائر من أبناء الولاية؛ تأليف مجلس تمثيلي في الولاية له سلطات محلية واسعة، منها إقرار ميزانية الولاية؛ تعيين مستشارين أجانب في دوائر الولاية الحكومية توافق العاصمة على اختيارهم وتعيينهم؛ أن يقضي أبناء الولاية الخدمة العسكرية فيها أيام السلم.

١١ - جمعية العهد (١٩١٣)

تأسست في الجيش العثماني، ومن الأسباب التي استدعت تأسيسها فشل مساعي الإصلاحيين العرب مع الاتحاديين بعد المؤتمر العربي الأول. تمثلت أهدافها في السعي نحو الاستقلال الداخلي للبلاد العربية، على أن تكون متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا، وبقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة في أيدي آل عثمان، والدفاع عن الآستانة في وجه مطامع الدول الأجنبية، وأن يكون العرب القوة الاحتياطية الداعمة للأتراك من أجل الدفاع عن الشرق في وجه الغرب، فضلاً عن تنمية المزايا المحموده وبث الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة لأن الأمة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مميزة بالأخلاق الصالحة.

سابعاً: المؤتمر العربي الأول (١٩١٣)

ما إن حلت الجمعية الإصلاحية في بيروت حتى فكر خمسة من الشباب العرب في باريس، وهم: عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي وتوفيق الناطور وجميل مردم ومحمد المحمصاني، في عقد مؤتمر عربي تدعى إليه المنظمات العربية، العلنية منها والسرية، لمناقشة أوضاع بلادهم في الدولة العثمانية، بعيداً عن الإرهاب الذي نشره الاتحاديون فيها. وحددت أبحاث المؤتمر على النحو التالي: الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال؛ حقوق العرب في المملكة

العثمانية؛ ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية؛ المهاجرة من سورية وإليها. ولوحظ في تشكيل لجنة المؤتمر تمثيل المسلمين والمسيحيين بالتساوي.

وتوضيحاً لدور المسيحيين العرب في هذا المؤتمر، يتوجب علينا الإشارة إلى أهم الأفكار التي اشتملت عليها كلماتهم التي ألقيت في سياق أعمال المؤتمر، حيث يمكن الإشارة إلى النقاط الجوهرية التالية: التشديد على عدم الانفصال عن الدولة العثمانية؛ التشديد على أن العرب أمة متميزة لها حقوقها؛ رفض ومقاومة كل تدخل أجنبي؛ تأكيد وحدة المسلمين والمسيحيين في إطار قومي أو وطني؛ الإصلاح عن طريق اللامركزية.

تمثل دور المسيحيين العرب الثقافي والإعلامي في ما يخص الثورة العربية الكبرى في الأشعار والقصائد التي قيلت في مدح الثورة.

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر اتخذت قرارات كان منها أن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية؛ فيجب أن تنفذ بوجه السرعة، ومن المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً، وأن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وأن تكون الخدمة العسكرية في الولايات العربية. وإذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها المؤتمر، يمتنع الأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية عن قبول أي منصب في الحكومة العثمانية.

يتضح لنا من خلال هذه القرارات ومن الرجوع إلى أسماء المؤتمرين أن المؤتمر كان قومياً عربياً يضم المسلم والمسيحي، وأن قراراته في جملتها لا تتعدى المطالبة بالاشتراك في الحكم المركزي، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية، وأن يتمتع العرب بحقوقهم القومية في دولة هم فيها أكثر من نصف السكان.

ثامناً: دور المسيحيين العرب في الثورة العربية الكبرى

١ - الدور السياسي

بدأت الحرب العالمية الأولى فيما كانت العلاقات التركية - العربية تجتاز مرحلة محفوفة بالحيرة والتردد. ذلك أن دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا كان قد وضع الحركة العربية أمام أخطار جديدة، وكان طبعياً أن يفكر العرب في مصير البلاد العربية في المشرق. وكانت تلك الخطوة عاملاً أساسياً في تغذية الاتجاه نحو الاستقلال. ومما أدى إلى تفاقم الوضع الخطوات التي اتخذها الأتراك ضد العرب في بلاد الشام من بعثرة الجنود والضباط العرب في مختلف أنحاء الدولة وجبهات الحرب، وتشكيل الديوان العرفي العسكري في عاليه، وتعقب رجالات العرب وشبابهم الذين برزوا على مسرح الحركة العربية، ونفي وتشريد طائفة كبيرة من رجال العرب وأسرههم، وأخيراً حُكم جمال باشا في سورية والمظالم التي ارتكبها في حق رجالات العرب - ومنها حملة الإعدامات - التي لم يميز بها بين مسلم ومسيحي، الأمر الذي شكل العامل الحاسم

لإعلان الثورة ضد الأتراك؛ إذ كانت حافزاً للشريف حسين على بدء العمل بحسب ما تم الاتفاق عليه بين الجمعيات العربية السرية في الشام - العهد والفتاة - التي ضمت في عضويتها المسلم والمسيحي معاً؛ إذ وضعت لنفسها أهدافاً جديدة من السعي إلى الاستقلال.

وتتضح هذه الأهداف من خلال ميثاق دمشق لعام ١٩١٥ الذي تضمن مطالب الزعماء العرب من بريطانيا من أجل المضي في الثورة، ومن ضمنها، بالإضافة إلى مطلب الاستقلال، إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية، وعقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة، وتقديم بريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشاريع الاقتصادية. أما من الناحية السياسية، فقد تعهد الشريف بإعلان الثورة العربية، وتعهّد بريطانيا بأمرين واضحين: الأول هو الاعتراف بالخلافة العربية حال قيامها، والثاني هو الاعتراف باستقلال العرب ضمن منطقة معينة، وحماية هذا الاستقلال.

هذه هي أهم الآراء التي كانت تجول في صدور متنوري العرب بعد بدء الإجراءات الإرهابية التي قام بها جمال باشا، وهي الآراء التي تشارك فيها المسلمون والمسيحيون معاً. وبإعلان الثورة عام ١٩١٦، تجاوز العرب مرحلة الأفكار النظرية إلى مرحلة العمل الجاد، وكان الهدف واحداً؛ فقد ضمت قوات الثورة أبناء الجزيرة العربية من الحجاز ونجد واليمن وأبناء سورية وفلسطين والعراق، وقاتل فيها المسيحيون إلى جانب المسلمين أبناء جنسهم.

إن موقف المسيحيين العرب من الثورة العربية شأنه في ذلك شأن موقف المسلمين العرب، وذلك لأن الجمعيات العربية التي مهدت السبيل إلى الثورة ضمت في عضويتها المسلم والمسيحي معاً، والقرارات التي صدرت عنها شارك في اتخاذها المسلم والمسيحي معاً.

ومن الأسماء التي شاركت في الثورة أمين يزيك، إميل الخوري، فريد الخازن، سعيد عمون، فؤاد سليم، نعيم الخوري، خليل السكاكيني، نعمان ثابت، أمين معلوف. وكان ذلك إما من خلال الأعمال العسكرية أو القيام بأعمال الترجمة، وتشكيل اللجان من أجل الدعاية للثورة في الخارج.

٢ - الدور الثقافي والإعلامي

تمثل دور المسيحيين العرب الثقافي والإعلامي، في ما يخص الثورة العربية الكبرى، في الأشعار والقصائد التي قيلت في مدح الثورة كحدث تاريخي، والإشادة بأهدافها وقائدها.

فالأشعار والقصائد التي قالها الشعراء المسيحيون العرب في الثورة دارت موضوعاتها حول الحز على الثورة، وتمجيد شهداء ٦ أيار/ مايو ١٩١٦، والتغني بالقومية العربية، وإعلان تأييدهم لقيام الثورة، وأخيراً مدح قائد الثورة الشريف حسين بن علي.

ويأتي في طليعة هؤلاء الشعراء إيليا أبو ماضي؛ إذ نشر الروح القومية العربية، وحض العرب على الثورة والاستقلال عن الأتراك، ومنهم أيضاً رفيق رزق سلوم بقصيدته «صبوا الدماء على قبري».

وأخذ الشعراء يرثون الشهداء ويصفون المأساة، ومنهم جورج أطلس، فارس

الخوري، حليم دموس، رشيد سليم الخوري، بشارة الخوري، خليل مطران.

وفي مرحلة لاحقة شخص الشعر العربي هوية الثورة العربية القومية، ثم ركز على هويتها الدينية، فالعروبة مقترنة بالإسلام، والثورة قامت من أجل خدمة العرب والإسلام. ومن هؤلاء الشعراء أمين الريحاني، و خليل السكاكيني الذي وضع نشيداً وطنياً ولحنه وأصبح نشيد الثورة، ورشيد أيوب في قصيدته «شريف مكة» التي كانت تحية أرسلها إلى الشريف حسين وعبرَ فيها عن فرحته بقيام الثورة وتأييده لها وإعجابه بقائدها.

وأبرز الشعراء العرب المسيحيون هيبة الشريف حسين الدينية، وغيرته على الدين، وتحريره للعرب وإنقاذهم من جرائم الاتحاديين. ومن هؤلاء الشعراء مراد الخوري، قسطنطين يني، أمين الشويري، الياس طعمة، أسعد داغر، وغيرهم الكثير.

خاتمة

هذا، وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١ - عاش المسيحيون العرب في مصر وبلاد الشام ضمن أوضاع اجتماعية قاسية نوعاً ما؛ إذ وضعتهم سياسة الدولة العثمانية في درجة أدنى من درجة المسلمين، وذلك بسبب التشريعات والقوانين التي فرضت عليهم التمييز في اللباس والتجمع والمساكن... إلخ. الأمر الذي اتخذته الدول الأوروبية ذريعة من أجل التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، والعمل على فرض الوصاية على الطوائف المسيحية المختلفة بحجة حمايتها والحفاظ على حقوقها، وهو ما أدى إلى خلق وضع مميز للمسيحيين العرب اقتصادياً وتعليمياً؛ إذ إن اتصالاتهم بالغرب وفرت لهم اطلاعاً واسعاً على ثقافة الغرب وحضارته، ودفعتهم إلى تبني التيارات الفكرية السائدة في الغرب آنذاك، ومن ضمنها الفكرة القومية.

٢ - خلصت الدراسة إلى نتيجة يمكن صوغها على شكل السؤال التالي: لماذا تبني المسيحي العربي فكرة القومية العربية؟ وهل كان ذلك خدمة لمصالح الدول الاستعمارية في المنطقة والقضاء على فكرة الدولة الإسلامية آنذاك أو بسبب إحساس المسيحي بالانتماء إلى الأمة العربية التي عاش في ظلها مئات السنين، والتي يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من مكوناتها، شأنه شأن المسلم العربي الذي يرتبط بها من خلال اللغة والتاريخ والتراث والعادات والتقاليد المشتركة؟

٣ - لقد نظر المسيحي العربي إلى الدين الإسلامي كمقوم أساسي من مقومات الفكرة القومية العربية، وذلك من خلال اعتقاده أن عز الإسلام لن يعود إليه إلا بالعرب - لأن من عمل على نشر الإسلام هم العرب - وأن الخلافة يجب أن تكون في يد المسلم العربي حصراً.

٤ - أسس لفكرة القومية العربية عدد كبير من المسيحيين العرب، وأبرزهم ناصيف اليازجي وإبراهيم اليازجي وبطرس البستاني وسليمان البستاني وجبر ضومط وفرح أنطون وأديب إسحق وفرنسيس المراش وأحمد فارس الشدياق ونجيب عازوري، وغيرهم الكثير.

٥ - تمثلت طموحات المسيحيين العرب من خلال تبني فكرة القومية العربية في تحقيق الوحدة العربية بين بلاد الشام ومصر، وبالعيش بسلام وعلى قدم المساواة مع المسلمين

العرب، وذلك لبناء الدولة العربية القائمة على أسس من التقدم والتمدن الحديث ليصلوا إلى ما وصلت إليه الدول الأوروبية من تقدم وتطور على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية كافة.

٦ - تبني المسيحيون العرب فكرة القومية العربية عبر تيارات مختلفة؛ إذ برزت أولاً عبر التيار العروبي ومن ثم التيار العلماني العروبي وأخيراً العروبي الاشتراكي.

كان هناك عدد من المسيحيين العرب ممن اتجهوا بأنظارهم نحو الغرب لتحقيق طموحاتهم في التخلص من الحكم التركي. وحجتهم في ذلك أن العرب غير قادرين في هذه الفترة على بناء الدولة الحقيقية.

٧ - لعب المسيحيون العرب دوراً مبكراً وأساسياً في تشكيل الجمعيات والتنظيمات السياسية القائمة على فكرة المساواة بين المسلم والمسيحي العربي لتحقيق العيش المشترك، واستبعاد المذهبية والطائفية والتعصب الديني من مشاعرهم وعقولهم، وتوحيد الأهداف القومية بداية من التطلع إلى تحقيق ما وصل إليه الغرب من تمدن وتقدم عبر تبني العلوم المعاصرة، والابتعاد عن كل ما هو تقليدي في العلوم المختلفة. ومن ثم التنظيمات السياسية التي مهدت للتخلص من الحكم التركي في الفترة ١٩٠٨ -

١٩١٤ وعبر الجمعيات التي سعت إلى التخلص من الحكم التركي ما بعد العام ١٩١٤.

٨ - على الرغم من قلة المعلومات المتوافرة حول موقف المسيحيين العرب من الثورة العربية الكبرى، فإننا نستطيع القول إن المواقف قد تباينت سياسياً وإعلامياً؛ إذ وجد من كان في صف الثورة وعبر عن ذلك من خلال المشاركة السياسية والعسكرية في أعمالها، والأشعار التي قيلت في مدح الثورة وقائدها. وهناك من تبني موقف تحقيق الاستقلال بالاتجاه كلياً نحو الغرب لبناء الدولة الحديثة تحت حمايته.

٩ - كان هناك عدد من المسيحيين العرب ممن اتجهوا بأنظارهم نحو الغرب لتحقيق طموحاتهم في التخلص من الحكم التركي، وبالتحديد في لبنان الذي كان زعماءه يطمحون إلى وضعه تحت الحماية أو الوصاية الأجنبية، وحجتهم في ذلك أن العرب غير قادرين في هذه الفترة على بناء الدولة التي يتمكنون من خلالها من اللحاق بالغرب اقتصادياً وعلمياً، لكن هذا الموقف لا يمكن تعميمه على جميع المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر.

١٠ - إن أغلب الدراسات التاريخية الحديثة المتخصصة في تطور فكرة القومية العربية توقفت عند الرواد من أمثال عبد الرحمن الكواكبي وساطع الحصري، لكنهم لم يتوقفوا عند الشخصيات التي ساهمت في بلورة الفكرة القومية، وعملت على إغنائها، ولم يبرزوا الدور الفاعل والمؤثر الذي لعبوه في تحريك الفكرة القومية من مستوى التفكير إلى مستوى الإرهاص، ثم إلى مستوى التبليغ والتنظيم، على الرغم من أهمية المسيحيين العرب - الرواد الأوائل - لغويين وصحافيين وسياسيين، في بناء الفكرة القومية العربية □